مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد8/العـدد: 01 (2020)، ص ..-- ..

منهج اسبينوزا في نقد نص التوراة

Espinoza's Method in Criticism TheThorah Text

حمالي فريدة، أستاذة محاضرة –ب– في المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة
الإيميل: kimou97@gmail.com

تاريخ الاستلام: ../../2020 تاريخ القبول: ../../2020 تاريخ النشر: ../../2020

ملخص:

اهتم اسبينوزا بدراسة نص التوراة فأخضعه للنقد التاريخي مرتكزا في ذلك على العقل الرياضي الهندسي. لهذا انصب اهتمامنا في هذا المقال على البحث في المنهج الذي اتبعه في نقد نص التوراة والقواعد المنهجية التي طبقها في سبيل معرفة ما إذا كانت نسبته إلى موسى عليه السلام هي صحيحة في نظر اسبينوزا أم لا .

فتوصلنا في الأخير إلى أنه اعتمد على المنهج التحليلي النقدي بشقيه الخارجي والداخلي. وبعد فحصه النقدي لنص التوراة استنتج أنه من تأليف ابن عزرا ليشرح شريعة الله لمعاصريه رافضا بذلك نسبته إلى موسى عليه السلام.

كلمات مفتاحية: اسبينوزا؛ النقد التاريخي؛ النقد الخارجي؛ النقد الداخلي؛ التوراة، الأسفار الخمسة؛ ابن عزرا.

Abstract: Espinoza subjected the sacred texts to historical criticism, relying on geometric mathematical reason. Also he subjected The Thorah text to the analytical method relying on external and internal criticism.

He concluded that this text was Written by Ibn Ezra to explain the law of God to his contemporaries refused to do so attributed to Moses. Thiscriticism was from Thorah text. As a result of that, he entered into conflict with Judaism which persecuted him.

Keywords : Espinoza; Historical Criticism; External Criticism; Internal Criticism; Torah; The Five Books; ; Ibn Ezra.

المؤلف المرسل: حمالي فريدة

1. مقدمة:

إن اليهودية أول الديانات السماوية التوحيدية التي خلفت نصا دينيا يعتبر أصل التشريع اليهودي والأساس الذي تقوم عليه والمرجع الذي يضمن لها الاستمرار خاصة بعد وفاة نبيّها ومؤسسها موسى عليه السلام، فكانت التوراة في نظر اليهود وحيا صادقا، لا يشوبه تحريف وقد أنزله الله على موسى في جبل الطور في سيناء.

لكن بعد وضع العلماء أصول النقد المنهجي للنصوص وتحديد القوانين الضرورية له وتطبيقها على الوثائق والنصوص الدينية، تعرض الباحثون للتوراة بالنقد التاريخي، فاختلفوا في صحة سنده وكذا في تاريخ تدوينه إلى جانب اختلاف المذاهب اليهودية والمسيحية في عدد أسفاره وترتيبها. وما تجدر الإشارة إليه أن نقد العهد القديم علم إسلامي جذوره في القرآن الكريم، ثم في كتب التفسير وكتب الملل والنحل وأهمها كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (994/م-1064/م) الذي أثرى الفكر الإنساني في هذا المجال، مما جعل العديد من علماء العهد القديم ونقاده قديما وحديثا يهتمون بدراسة التوراة وعلى رأسهم الفيلسوف الهولندي اسبينوزا (Spinoza 1632-1677) الذي لعب دورا مهما في نقد العهد القديم، لهذا انصب اهتمامنا في هذا المقال على اسبينوزا قصد البحث في المنهج الذي اتبعه في نقد نص التوراة والقواعد المنهجية التي وظفها في سبيل حل إشكالية تأليف موسى للتوراة، والتي يمكن صياغتها على النحو التالي: ما هو المنهج الذي اعتمده اسبينوزا في نقده لنص التوراة ليبيّن ما إذا كانت نسبته إلى موسى صحيحة أم لا؟ وهل ثمة شواهد تاريخية تثبت ذلك؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية طبقنا المنهج التحليلي التركيبي القائم على تحليل آراء اسبينوزا معتمدين في ذلك على أهم مؤلفاته وهي الرسالة في اللاهوت والسياسة، فتضمن مقالنا العنصر التالي بعنوان منهج اسبينوزا في النقد التاريخي للتوراة، وقد تفرع إلى عنصرين أساسيين أحدهما يتناول النقد الخارجي والآخر النقد الداخلي، وفي هذا الأخير تطرقنا إلى تحليل اسبينوزا لرموز ابن عزرا ثم تحليله هو لنص التوراة. أما الخاتمة فتضمنت أهم النتائج المستخلصة من المقال.

2. منهج اسبينوزا في النقد التاريخي للتوراة:

يعتبر اسبينوزا من أعلام فلسفة القرن السابع عشر، أسس مذهبا ميتافيزيقيا أنطولوجيا يتمحور حول الجوهر أو الإله بوصفه الطبيعة الشاملة (Spinoza, 1964, p 145)، أعاد من خلاله الوحدة إلى الوجود وذلك بالتوحيد بين الإله والطبيعة وبين النفس والجسم معتمدا في ذلك على المنهج الهندسي لعرض أفكاره في صورة منطقية. وهكذا فقد حوّل مذهبه العالم إلى نسق واحدي رياضي الإله فيه هو الطبيعة محددا ماهيته في الفكر والامتداد بحيث تصدر عنهما أشياء لامتناهية عن أحوال لامتناهية(*). ومن بين هذه الأشياء الإنسان بوصفه جزءا من الطبيعة الشاملة، لهذا عليه أن يكون واعيا بحالته الأنطولوجية والاتحاد الحقيقي القائم بين عقله والطبيعة في شموليتها عن طريق المعرفة العقلية الحدسية التي تمكنه من إدراك الأشياء في صورتها الأزلية وحين يبلغ هذه الدرجة من الكمال يحب ما هو أزلي لأنه يصبح هو والإله-الطبيعة الشاملة- شيئا واحدا.

لقد أقام مذهبه على أساس الفصل بين الفلسفة والدين مؤكدا بذلك على أن المعرفة في مجال الدين تكون مختلفة عن المعرفة الطبيعية القائمة على أساس العقل والدليل على ذلك ما ذهب إليه في كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة مبيّنا فيه أن غاية الفلسفة هي الحقيقة وغاية الإيمان هي الطاعة والتقوى. فوحدة وجود اسبينوزا الفلسفية قائمة على المنهج العقلاني البعيد عن كل اعتقاد ديني.

قام اسبينوزا بثورة في الفكر الديني من خلال النقد التاريخي(**) للكتاب المقدس معتمدا في ذلك على العقل الرياضي الهندسي، فدرس النص الديني كما تدرس الظاهرة الطبيعية وهو ما لم يجرؤ ديكارت

(*)– فعن الإله تصدر بالضرورة أشياء لامتناهية عن أحوال لامتناهية. أنظر:

Spinoza, Éthique démontrée suivant l'ordre géométrique et divisée en cinq parties, traduction et notes par Charles Appuhn, (Paris : Garnier Flammarion, 1964), PI, prop.XVI.

(**)–النقد التاريخي: هو دراسة علمية يتم من خلالها فحص النص بهدف الوصول إلى الحقيقة التاريخية بطريقة موضوعية بعيدة عن الذاتية. والنصوص الدينية من الوثائق التاريخية على المؤرخ أن يحللها تحليلا منهجيا، ويطلق على هذا التحليل اسم النقد، والهدف منه هو تبيّن صحة ما جاء في الوثيقة من كذبة، وينقسم نقد الوثائق إلى قسمين:

(Descartes 1650-1596) نفسه على القيام به. وعليه فالنقد التاريخي كما يرى اسبينوزا هو سابق على الإيمان بالمصدر الإلهي للكتاب المقدس وهو الضامن لصحته من حيث هو وثيقة تاريخية تتضمن الوحي الإلهي، حتى لا يخلط الناس بين البدع الإنسانية والتعاليم الإلهية، وبالتالي إذا كان هدف ديكارت هو تبرير الدين، فإن هدف اسبينوزا هو تأصيل الدين وإخضاع الكتاب المقدس للنقد التاريخي وذلك من خلال كتابه الرسالة في اللاهوت والسياسة والذي يكمن موضوعه في إثبات أن حرية الفكر لا تمثل خطرا على الإيمان ولا على سلامة الدولة، وهذا بخلاف ما كان سائدا في عصره حيث كان هناك تداخل بين سلطتين اللاهوتية والسياسة وكلاهما يقومان على الخرافة ومنع حرية الرأي والقضاء على العقل. والخرافة كما يقول اسبينوزا: "هي من أكثر الوسائل فاعلية لحكم العامة". (سبينوزا، 1971، ص 113)، لهذا اتجهت عناية رجال الدين بحرص شديد إلى تجميل الدين سواء كان حقا أو باطلا بالشعائر والمراسيم الدينية ليصبح الإيمان التصديق بأوهام أولئك الذين يحطون من قيمة العقل مما يؤدي بمعظمهم إلى افتراض صحة الكتاب المقدس ومصدره الإلهي، مع أنّ هذا الافتراض ينبغي أن يكون نتيجة بحث دقيقة لا يبقى معه أي مجال للغموض والشك. لهذا اهتم اسبينوزا بإعادة فحص الكتاب المقدس من جديد بكل حرية وألا يثبت شيئا من تعاليمه أو يقبله ما لم يكن مستخلصا منه بطريقة واضحة، إذن موضوع الرسالة ليس هو اللاهوت فحسب أو السياسة فحسب أو حتى الصلة بينهما، بل بتعبير أدق الوحي في التاريخ أو التاريخ المقدس عندما تتحقق النبوة في فترة معينة وعند شعب معين.

أ- النقد الخارجي: وينصب على نص الوثيقة للتحقق من مصدرها ومؤلفها وتاريخها. وقد أطلق عليه د/ محمد عبد الله الشرقاوي اسم قوانين ضبط صحة الرواية والإسناد، أنظر: د/ محمد الشرقاوي، منهج نقد النص بين ابن حزم الأندلسي واسبينوزا، ب ط، (القاهرة: كلية دار العلوم، ب ت)، ص13.

ب- أما النقد الداخلي فإنه يتعلق بفحص مضمون النص لمعرفة مدى منطقيته وخلوه من الأخطاء المناقضة للحقائق العلمية والوقائع التاريخية ويرتكز على نقطتين أساسيتين: أولا: تحليل مضمون الوثيقة والنقد الايجابي للتفسير ضروريان للتأكد من مقصود المؤلف. ثانيا: تحليل الظروف التي أنتجت فيها الوثيقة والنقد السلبي لازمان لضبط أقوال المؤلف، أنظر: لانجلو اوسينوبوس، المدخل إلى الدراسات التاريخية، ضمن، النقد التاريخي، ط4، تر: عبد الرحمان بدوي، (الكويت: وكالة المطبوعات، 1981)، ص110.

وبهذا كان اسبينوزا من أكثر مفكري الغرب اهتماما بدراسة أسفار العهد القديم(*) دراسة نقدية، مخصصا في ذلك فصلا من الرسالة في اللاهوت والسياسة جاء بالعنوان التالي: "وفيه تتم البرهنة على أن الأسفار الخمسة وأسفار يشوع والقضاة وراعوث وصمويل والملوك ليست صحيحة ثم نبحث إذا كان لهذه الأسفار مؤلفون كثيرون أم مؤلف واحد".

واهتمامنا في هذا المقال منصب على تحليل اسبينوزا لنص التوراة أو الأسفار الخمسة(**)، لمعرفة ما إذا كانت نسبتها إلى موسى عليه السلام هي صحيحة في نظر اسبينوزا أم لا.

لقد بيّن اسبينوزا أن أهم الأسس التي تقوم عليها معرفة الكتب المقدسة، هي المعرفة التاريخية والنقدية، إلا أن القدامى قد أهملوا هذه المعرفة بالرغم من ضرورتها، وبالرغم من تدوينهم ونقلهم لها، فقد فقدت مما أدى إلى ضياع كلية جزء كبير من هذه الأسس والمبادئ المنهجية، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل قام الخلف بنقل معلومات خاطئة إلى المتأخرين، فكانت خيانتهم سببا في أن أصبحت المعلومات التاريخية عن الكتاب المقدس ناقصة بل كاذبة، والدليل على ذلك قوله: "إن الأسس التي تقوم عليها معرفة الكتاب ليست غير كافية فقط من حيث الكم... بحيث لا نستطيع أن نقيم عليها شيئا كاملا بل إنها أيضا معيبة من حيث الكيف". (سبينوزا،1971 ،ص 265) لهذا رأى ضرورة أن يقوم النقد التاريخي على القواعد التالية:

أولا: وجوب معرفة طبيعة وخصائص اللغة التي كتبت بها أسفار الكتاب المقدس، ومن ثم فحص كل المعاني التي يمكن أن يفيدها النص حسب الاستعمال الشائع مما يؤكد على ضرورة معرفة اللغة العبرية التي ألفت بها هذه الأسفار حتى يسهل فهمها.

ثانيا: ينبغي جمع آيات كل سفر وتصنيفها تحت موضوعات أساسية، حتى يتم العثور بسهولة على جميع الآيات المتعلقة بالموضوع نفسه، وبعد ذلك تجمع كل الآيات المتشابهة، أو المتعارضة مع بعضها البعض، بهدف فهم معاني النصوص وذلك استنادا إلى الأسفار وحدها.

(*)– العهد القديم: هو كتاب اليهود المقدس الذي يتكون من ثلاثة أقسام رئيسية هي التوراة وأسفار الأنبياء وأسفار المكتوبات(الحكمة)، أنظر، زالمانشازار، تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث، ب ط، تر: أحمد محمود هويدي، تقديم ومراجعة محمد خليفة حسن أحمد، (المجلس الأعلى للثقافة، 2000)، ص 3.

(**)– الأسفار الخمسة وهي: 1– التكوين، 2–الخروج، 3– العدد، 4–اللاويين، 5– التثنية أو التكرار، أنظر، د/مصطفى حلمي، الإسلام والأديان، دراسة مقارنة، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2004)، ص120–121.

ثالثا: ينبغي أن يقوم النقد التاريخي بربط كتب الأنبياء بجميع الملابسات الخاصة التي تحفظها الذاكرة ويقصد اسبينوزا بذلك سيرة مؤلف كل كتاب وأخلاقه والغاية التي كان يسعى إليها، ومن هو؟ وفي أي مناسبة كتب كتابه ومتى كتبه؟ ولمن؟ وبأية لغة كتبه؟ ويضيف اسبينوزا إلى ذلك ضرورة أن يقدم النقد التاريخي الظروف الخاصة بكل كتاب على حدى: كيف جمع أولا؟ وماهي الأيدي التي تناولته؟ وما هو عدد النسخ المختلفة المعروفة عن النص؟ ومن الذين قرروا إدراجه ضمن الكتاب المقدس؟ وأخيرا كيف جمعت جميع الكتب في مجموعة واحدة؟ لأنه من الواجب كما يقول اسبينوزا "...أن...نعلم...إن كانت هناك يد آثمة قامت بتحريف النص أو ...إن كانت قد تسربت إليه بعض الأخطاء. يجب أن نعلم كل هذا حتى لا نسير كالعميان فيسهل وقوعنا في الخطأ، وحتى لا نسلّم إلا بما كان يقينا لا يتطرق إليه الشك". (سبينوزا،1971، ص 246).

إذن النقد التاريخي عند اسبينوزا قائم على ثلاثة قواعد أساسية: إذ تتعلق القاعدة الأولى والثانية بالنص ذاته ويُطلق عليهما اسم "النقد الداخلي"، أما القاعدة الثالثة فمرتبطة بالمعرفة التاريخية للكتاب المقدس، ويُطلق عليها اسم النقد الخارجي".

1.2.النقد الخارجي:

يرى اسبينوزا أن النقد الخارجي للكتاب المقدس يرتكز على المعرفة التاريخية للظروف المتعلقة بكل أسفاره، إلا أنه في أغلب الأحيان لم تكن هذه المعرفة متوفرة (سبينوزا،1971، ص 255)، وهذا ما أدى إلى الجهل بمؤلفي هذه الأسفار أو الأشخاص الذين كتبوها أو حتى الشك فيهم إضافة إلى ذلك عدم معرفة المناسبة والزمان اللذان كتبت فيهما هذه الأسفار والأشخاص الذين وقعت في أيديهم ومصدر المخطوطات الأصلية التي وجد لها عدد من النسخ المتباينة، زيادة على ذلك عدم معرفة إن كانت هناك نسخ كثيرة في مخطوطات من مصدر آخر، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على وجود نقص في المعرفة التاريخية بالرغم من أهميتها، لأنه عند قراءة كتاب يتضمن أمورا لا يمكن تصديقها وإدراكها أو يشتمل على ألفاظ غاية في الغموض فإنه سيكون من العبث كما يقول اسبينوزا: "...أن نبحث عن معناه دون أن نعرف مؤلفه وزمن الكتابة ومناسبتها، ولا نستطيع مطلقا أن نعرف ما قصده المؤلف أو ما كان يمكن أن يقصده دون أن نعرف هذه الظروف كلها، وعلى العكس إذا عرفنا كل هذا بدقة، فإننا ننظم أفكارنا بحيث نتحرر من جميع الأحكام المسبقة، أي لا نعطي

المؤلف أو من ألف الكتاب من أجله أكثر مما يستحق أو أقل ولا نتصور أهدافا سوى تلك التي كان من الممكن أن يضعها المؤلف نصب عينيه"(سبينوزا،1971، ص 255). وأمام هذا النقص في المعرفة التاريخية للكتاب المقدس وفقدان الثقة في الأحبار الذين كانوا يزعمون أن الأخطاء الكثيرة الموجودة في الكتاب المقدس أسرار إلهية، وجد اسبينوزا نفسه مجبرا على أن ينطلق في دراسته للكتاب المقدس من الكتاب نفسه لأن اسبينوزا كما يقول عنه جلال الدين سعيد في كتابه، سبينوزا والكتاب المقدس الدين والأخلاق والسياسة: "لا يرضى لا بتأويل المجازي للكتاب المقدس ولا بالفهم الحرفي له، لا بالإفراط في العقل ولا بالتفريط فيه" (جلال الدين سعيد، 2017، ص 73)، بل إن منهجه القويم يكمن في شرح الكتاب المقدس بالكتاب نفسه.

2.2 النقد الداخلي:

لقد انصب جهد اسبينوزا في نقد التوراة نقدا داخليا على تفسير التحليل النقدي الذي أدلى به "ابن عزرا"، ليعرض بعد ذلك نقده التاريخي لنص التوراة.

1.2.2 تحليل اسبينوزا لرموز ابن عزرا:

انطلق اسبينوزا من الأسفار الخمسة التي نسبها الجميع تقريبا إلى موسى عليه السلام، ويذهب إلى أنه من بين الذين أيدوا هذا الرأي بشدة هم الفرس الذين اعتبروا أن كل من يظن خلاف ذلك من المارقين، إلا أن هناك من تفطن إلى هذا الخطأ هو ابن عزرا[*] الذي اعتبره اسبينوزا أول من قام بفحص التوراة فحصا نقديا، وهذا الرأي مبالغ فيه لأنه قد سبقه إلى ذلك ابن حزم الأندلسي الذي هو الآخر درس الأسفار الخمسة دراسة نقدية مطبقا منهج علماء المسلمين في نقد الحديث أي نقد المتن والسند أو كما يسميه بعض الباحثين بمنهج النقد الداخلي والخارجي، فتوصل إلى أن التوراة التي بأيدي اليهود محرّفة ومبدلة وليست كلام الله المنزل على موسى عليه السلام وهذا ما يتضح من خلاله قوله: "...فظهر كذب من عمل ذلك الكتاب المبدل المحرف المفتري الذي يزعمونه التوراة" (ابن حزم، (ب. ت)، ص 122)، وقوله أيضا: "...إن توراتهم مبدلة، وأنها تاريخ مؤلف كتبه لهم من

[*]– ابراهيم بن عزرا: ولد حوالي سنة 1092/م وهو واحد من أكثر علماء اليهود شهرة في العصور الوسطى، برع في الطب والأدب وقبل ذلك كله في اللغة وفقه الدين اليهودي وتفسيره للتوراة، توفي حوالي سنة 1167/م.

تحرض بجهله أو تعمد بفكره وأنها غير منزلة من عند الله تعالى... على موسى في حياته" (ابن حزم، ب ت، ص 141). وهكذا فقد رفض ابن حزم نسبة التوراة إلى موسى عليه السلام.

ومع أن اسبينوزا قد اعترف أن ابن عزرا هو أول من حلل التوراة تحليلا نقديا إلا أنه لم يجرؤ حسب رأيه على التعبير عن آرائه بوضوح مكتفيا بالإشارة إليها بألفاظ مبهمة (سبينوزا،1971، ص 266) أي أنه استعمل لغة رمزية لم تكن مفهومة للعديد من أبناء عصره أو الأجيال التي جاءت بعده، بحيث إنه ذكر في تفسيره لسفر التثنية عبارات صاغها بأسلوب غامض هو أقرب إلى كلمة السر منه إلى البحث العلمي(الشرقاوي محمد عبد الله، (ب. ت)، ص 53)، إلى أن جاء اسبينوزا وفسرها، فأورد أقوال ابن عزرا المذكورة في تفسيره لسفر التثنية وهي كالآتي: "فيما وراء نهر الأردن...الخ لو كنت تعرف سر الإثنتي عشرة...كتب موسى شريعته أيضا...وكان الكنعاني على الأرض...سيوحي به على جبل الله...ها هو ذا سريره، سرير من حديد، حينئذ تعرف الحقيقة (سبينوزا،1971، ص 266).

إذن هذه هي عبارات ابن عزرا، وقد فسر اسبينوزا قصده -ابن عزرا- من قوله: "عندئذ تفهم الحقيقة" في ثلاث نقاط تعبّر عن موقف ابن عزرا من نص هذه الأسفار وهي:

1- أن موسى لم يؤلف أسفار التوراة الخمسة وأنها لا تعود إلى عصره.

2- أن مؤلف هذه الأسفار شخص آخر عاش بعد موسى بزمن طويل.

3- أن موسى كتب سفرا مختلفا عن هذه الأسفار.

وقد توصل اسبينوزا إلى هذه النتائج استنادا إلى البراهين التي ذكرها ابن عزرا وهي كالتالي:

1- أن موسى لم يكتب مقدمة التثنية لأنه لم يعبر نهر الأردن (سبينوزا،1971، ص 266) ومات في البرية كما جاء في آخر سفر التثنية ذاته.

2- نقش سفر موسى كله بوضوح تام على حافة مذبح واحد يتكون من إثنى عشر حجرات حسب عدد الأحبار، وينتج عن ذلك أن سفر موسى كان في حجمه أقل بكثير من الأسفار الخمسة (سبينوزا،1971، ص 266).

3- ورد في سفر التثنية (31: 9) أن موسى قد كتب هذه التوراة إلا أنه يستحيل أن يكون موسى قد قال ذلك، بل لا بد أن يكون قائلها كاتبا آخر يروي أقوال موسى وأعماله (سبينوزا، 1971، ص 267).

4- يشير ابن عزرا إلى النص من سفر التكوين (12: 1) وفيه يقص الراوي رحلة إبراهيم في بلاد الكنعانيين، مضيفا إلى ذلك أن الكنعانيين حينئذ في الأرض، وهذا يدل بوضوح على أن الأمر لم يعد كذلك عندما كان يكتب، فلا بد أن هذه الكلمات قد كتبت بعد موت موسى. ويذهب اسبينوزا إلى أنه لم يكن هناك شخص آخر قبل كنعان يسكن هذه الأرض مستندا في ذلك إلى الإصحاح العاشر من التكوين ومضمونه أن "كنعان هو أول من فلح هذه الأرض وقطنها"(نقلا عن: سبينوزا،1971، ص 267).

5- يذكر ابن عزرا أنه جاء في سفر التكوين (22: 14) أن جبل موريا سمي جبل الله، ومن الواضح أن هذا الجبل لم يحمل هذا الاسم إلا بعد الشروع في بناء المعبد (سبينوزا،1971، ص 267)، وقد جاءت هذه التسمية بعد موسى مما يدل على أن مؤلف الأسفار هو الذي يقول أن هذا المكان يسمى اليوم جبل الله.

6- أما في البرهان الأخير، فيذكر ابن عزرا أن مؤلف سفر التثنية يدخل بعض الكلمات في الروايات الخاصة بعوج ملك بشان[*] على النحو التالي: ولقد بقي عوج ملك بشان وحده من بين العمالقة الآخرين وها هو سريره، سرير من حديد، هذا السرير الذي طوله تسعة أذرع الموجود في الرباط عند أطفال آمون" (سبينوزا،1971، ص 268). وحسب اسبينوزا تدل هذه الإضافة بكل وضوح على أن من كتب هذه الأسفار، عاش بعد موسى (عليه السلام) بمدة طويلة، وطريقته في الحديث عن الأشياء طريقة مؤلف يروي قصصا قديمة جدا، ويذكر بعض الآثار التي مازالت باقية من هذا الزمن البعيد.

وهكذا فسر اسبينوزا رموز ابن عزرا والبراهين التي استند إليها ليثبت خطأ أخبار الفرس في نسبة الأسفار الخمسة إلى موسى (عليه السلام)، فرأى أنها مجرد روايات تاريخية جمعها مؤلف أو أكثر من تواريخ موضوعة مجهولة المصدر، لأن الوقائع التي أشارت إليها لم تحدث إلا بعد موسى، كما أن التوراة الحقيقية كما يقول اسبينوزا هي أصغر بكثير من الأسفار الخمسة المعروفة (سبينوزا،1971، ص 273) وأيضا الأسلوب المعتمد في صياغة هذه الأسفار يدل دلالة قاطعة على

[*]– ملك بشان: أحد الملوك الذين حاربهم الإسرائيليون واستولوا على أرضهم، أنظر د/ محمد عبد الله الشرقاوي، منهج نقد النص بين ابن حزم الأندلسي واسبينوزا، ص 56.

أن موسى لم يكن مؤلفها، وهذا ما يتضح من خلال طريقة إسناد الضمائر والتعليق على نص الرواية وشرحها، إضافة إلى ذلك ورد فيها ذكر أسماء لأماكن لم تكن هذه الأخيرة معروفة بها إلا بعد وفاة موسى بزمن طويل.

2.2.2 تحليل اسبينوزا لنص التوراة:

بعد انتهاء اسبينوزا من تفسير الفكر النقدي الذي أدلى به ابن عزرا، انتقل إلى عرض تحليله النقدي للتوراة، وما تجدر الإشارة إليه أن نقد ابن عزرا كان مقتصرا على الأسفار الخمسة فحسب، في حين طبّق اسبينوزا منهجه النقدي على أسفار العهد القديم بما فيها الأسفار الخمسة ومن خلال شرحه لنقد ابن عزرا، تبيّن له أنه لم يكن كاملا (سبينوزا،1971، ص 269)، بل تنقصه أدلة أخرى، لهذا عمق اسبينوزا أفكاره بإضافة أمثلة أخرى وشروحات جديدة لم يتطرق إليها ابن عزرا، ومن أجل تدعيم رأيه ذكر اسبينوزا أدلة أخرى من ثنايا أقوال التوراة التي يمكن أن تستخدم كما يقول زالمانشازار: "كحجر أساس وشهادة معززة له" (زالمانشازار، (ب. ت)، ص 99)، ومن بين الأدلة التي ذكرها هي:

1- لا يتحدث كتاب التوراة عن موسى بضمير الغائب، كما يسرد وقائعا من المستبعد أن يكون هو قائلها عن نفسه، وقد استشهد اسبينوزا بالأمثلة التالية: "تحدث الله مع موسى"، "كان الله مع موسى وجها لوجه" "كان موسى رجلا حليما جدا أكثر من جميع الناس" (سبينوزا،1971، ص 269) إلخ وعلى العكس من ذلك يتحدث موسى بضمير المتكلم في سفر التثنية الذي كتبت فيه الشريعة التي شرحها لبني إسرائيل فيقول: "كلمني الرب"، "رجوت الرب" (نقلا عن سبينوزا،1971، ص 269) إلى أن أتم موسى تفسير الشريعة كلها، عندئذ بدأ النص المقدس يتحدث بشأن موسى مرة ثانية بضمير الغائب، وأكثر من ذلك يسرد كيف مات وكيف دفن من قبل بني إسرائيل. إذن يؤكد اسبينوزا من خلال الدليل الأول على أن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة قائلا: "كل ذلك أعني طريقة الكلام والشواهد ومجموع نصوص القصة كلها يدعو إلى الاعتقاد بأن موسى لم يكتب هذه الأسفار بل كتبها شخص آخر" (سبينوزا،1971، ص 269).

2- يشير اسبينوزا إلى أن هذه الرواية لا تتحدث فقط عن موسى ودفنه وحزن الأيام الثلاثين للعبرانيين، بل تروي أيضا أنه فاق جميع الأنبياء الذين عاشوا بعده مستندا في ذلك إلى سفر

التثنية (34: 1) الذي يقول: "ولم يقم من بعده نبي في إسرائيل كموسى الذي عرفه الرب وجها لوجه" (نقلا عن سبينوزا،1971، ص 269). وعلى هذا الأساس يرى اسبينوزا أن هذه الشهادة لم يكن من الممكن أن يدلي بها موسى نفسه أو شخص آخر جاء بعده مباشرة، بل شخص عاش بعده عدة قرون (سبينوزا،1971، ص 269) وقرأ عن أنبياء عديدين بعد موسى، لا سيما أن المؤرخ استعمل صيغة الفعل الماضي على النحو التالي: "ولم يقم من بعده نبي في إسرائيل" و"لم يعرف أحد قبره إلى يومنا هذا"، وقد استند في هذا المثال إلى سفر التثنية (34: 6) (سبينوزا،1971، ص 269).

3- وجد اسبينوزا في ثنايا التوراة أسماء أماكن لم تكن معروفة في زمن موسى، إذ يقال في التوراة أن إبراهيم تابع أعداءه حتى دان وهذا استنادا إلى سفر التكوين (14: 14) (سبينوزا،1971، ص 270). وكما هو واضح من سفر القضاة[*]أن اسم هذه المدينة لم يكن معروفا من قبل، بل عرف فقط بعدما استولى عليها بنو دان وبنوها من جديد، فأطلقوا عليها اسم دان، لهذا يستفسر اسبينوزا متسائلا: كيف يذكر موسى وهو يقص قصة إبراهيم أنه تابع أعداءه حتى مدينة دان، وهي التي لم يطلق عليها هذا الاسم إلا بعده بزمن طويل؟

4- تمتد روايات التوراة -في بعض الأحيان- إلى ما بعد موسى، وقد استشهد اسبينوزا في ذلك بما يرويه سفر الخروج: أن بني إسرائيل أكلوا المن أربعين يوما حتى وصلوا إلى أرض مسكونة على حدود بلاد كنعان أي حتى اللحظة التي يتحدث عنها سفر يشوع (5: 12-11) (سبينوزا،1971، ص 270).

5- يتحدث سفر التكوين عن ملوك حكموا الأدوميين زمن داود-بعد موسى بزمن طويل جدا- وكما هو واضح بالنسبة إلى اسبينوزا فإن الراوي يتحدث عن الملوك الذين كانوا يحكمون الأدوميين قبل أن يخضعهم داود لحكمه.

إذن بناء على الأدلة السابقة يؤكد اسبينوزا على أن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة، بل كتبها شخص آخر عاش بعده بقرون طويلة. إذا كان الأمر كذلك ما هو السفر الحقيقي الذي كتبه موسى؟

[*]– سفر القضاة (18: 29) "سموا المدينة (دان) باسم أبيهم الذي ولد لإسرائيل، وكان اسم المدينة قبل ذلك لايش، أنظر رسالة في اللاهوت والسياسة، الهامش، ص 270.

يرى اسبينوزا أنه استنادا إلى سفر الخروج (17: 14) كتب موسى بأمر من الله "عن الحرب ضد العمالق"، إلا أن هذا الإصحاح لا يذكر أي سفر كتب، بل ترد في سفر العدد (21: 14) إشارة إلى سفر يسمى حروب الرب، يحتوي ولا شك على قصة الحرب ضد العمالق، كما ورد في سفر الخروج (21: 14) أن سفرا آخر يعرف باسم "العهد القديم" قرأه موسى أمام الإسرائيليين عندما عقدوا عهدا مع الله. لكن يرى اسبينوزا أنه "لما لم يكن لدينا أي سفر يحتوي ...على عهد موسى... فيجب أن نعترف ضرورة بأن هذا السفر قد فقد" (سبينوزا،1971، ص 272)، وعليه يستنتج أن سفر توراة الله الذي كتبه موسى لم يكن من الأسفار الخمسة، بل كان مختلفا عنها، فهو صغير الحجم لأن راوي التوراة ذكر أن موسى أعطاه للأحبار ثم طلب منهم قراءته أمام الشعب في أوقت معلومة، وهذا ما يصرّح به اسبينوزا قائلا: "لما كانت نصوص كثيرة في الأسفار الخمسة لا يمكن أن يكون موسى كاتبها، فإن أحدا لا يستطيع أن يؤكد عن حق، أن موسى هو مؤلف الأسفار الخمسة، بل على العكس يكذب العقل هذه النسبة" (سبينوزا،1971، ص 273).

إذا كان الأمر كذلك، فمن هو كاتب أو واضع التوراة؟ وهل ينسب إلى مؤلف واحد أو مجموعة من المؤلفين؟

بعد أن وضح اسبينوزا خطأ نسبة التوراة إلى موسى أشار إلى أن مؤلفها هو مؤرخ واحد، مستندا في ذلك إلى تسلسل أسفارها كلها وإلى محتواها (سبينوزا،1971، ص276)، وقد كتبها بهدف رواية تاريخ اليهود منذ نشأتهم الأولى حتى هدم المدينة لأول مرة. إلا أن اسبينوزا لم يكن على يقين من هو هذا الشخص، ومع ذلك يرجّح أن يكون ابن عزرا هو مؤلف التوراة(سبينوزا، ص 277) ثم نسبها إلى موسى زورا وكذبا، ولتدعيم رأيه اعتمد على الأدلة التالية:

1- إن رواية هذه الأسفار رواية واحدة لكاتب واحد له غاية واحدة وطريقته في العرض واحدة.

2- كان هذا الراوي جالسا طيلة حياته على مائدة الملك (أي مائدة يواكين أو نبوخذ نصر).

3- يؤكد اسبينوزا على أنه لا يمكن للراوي أن يكون سابقا على ابن عزرا لأنه استنادا إلى سفر عزرا(7: 6) فقد كان -عزرا- مهتما بدراسة شريعة الله وملما بها، ولم يكتف بفهمها فحسب بل بعرضها أيضا.

4- يشير اسبينوزا إلى أن سفر التثنية لا يتضمن شريعة موسى فحسب، بل يتضمن أيضا شروحا كثيرة أضيفت إليه، ويقر بوجود اختلاف كبير بين الوصايا العشر[*] الواردة في سفر التثنية وسفر الخروج من حيث التعبير عنها وترتيبها والبرهنة عليها، فمثلا الوصية الرابعة قد صيغت بطريقة مختلفة في كل من سفر الخروج[**] وسفر التثنية[***] بل كانت عبارتها في سفر التثنية أطول، لهذا يعتقد اسبينوزا أن ابن عزرا هو الذي قام بكل هذه التغييرات لشرح شريعة الله لمعاصريه. وفي هذا الصدد يقول د/ علي عبد الواحد وافي: "الأسفار الخمسة بالتوراة مكتوبة بأقلام اليهود، وتتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار تاريخهم الطويل"(نقلا: حلمي مصطفى، 2004، ص 144).

إذن كان الاعتقاد القديم الذي توارثه اليهود والمسيحيون يؤكد على كتابة موسى لأسفار التوراة الخمسة، إلى أن جاءت الإشارات الرمزية لابن عزرا -وقد سبقتها مجهودات ابن حزم- لتشير إلى أن موسى ليس هو من كتب التوراة، وأنها كتبت بعد قرون من وفاته، وقد تأيدت هذه الرؤية فيما بعد على يداسبينوزا الذي رأى أن مصدر الأسفار الخمسة هو ابن عزرا الذي كان يهدف من خلالها إلى غاية واحدة هي تعليم الشريعة التي أملاها موسى على اليهود والبرهنة عليها.

3. خاتمة:

لقد قام اسبينوزا بثورة في الفكر الديني من خلال النقد التاريخي للكتاب المقدس محاولا بذلك إنقاذ الدين من التحريف الذي لحق الكتب المقدسة وفحصه من منظور العقيدة، ليس من أجل التشكيك في جوهر الإيمان القلبي بل للحد من غلو اللاهوت السياسي كما تجلى ذلك من خلال كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة فكان هدف اسبينوزا هو نقد الخرافة والدفاع عن الحرية كما سعى إلى تخليص اللاهوت من التأويلات البعيدة عن القراءة التاريخية والنقدية.

(*)– الوصايا العشر: Décalogue تعني الكلمات العشر.

(**)– سفر الخروج: أذكر يوم السبت لتقدسه، أنظر، سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، الهامش، ص 280.

(***)– سفر التثنية: احفظ يوم السبت وقدسه كما أمرك الرب، أنظر، المصدر نفسه، الهامش، ص 280.

وفي سبيل القضاء على الفكر الخرافي وتجنب الوقوع في شباك اللاهوتيين، يدعو اسبينوزا إلى إعمال العقل والتحلي بالحس النقدي ولا سيما في قراءة النصوص المقدسة، بحيث إنه ينبغي تمييز كلام الله الحق مما ألحق به من تحريف.

وما قام به اسبينوزا كان دفاعا عن الحرية الدينية وتأكيدا على حرية الفرد في ممارسة الديانة التي يختارها طالما أنه لا يضر بالنظام العام للدولة. فكان شعاره في ذلك حرية التفكير والتعبير والتفلسف مما أدى إلى دخوله في صراع مع الطائفة اليهودية التي عملت على اضطهاده، فقام الحاخامات بتحريض اليهود ضده وأمرتهم بعدم التعامل معه أو مخاطبته أو حتى التواجد معه في مكان واحد، ولم يتوقف الأمر بهذه الطائفة عند هذا الحد، بل وصل بها الأمر إلى محاولة اغتياله إلا أنه نجا منها بأعجوبة، مما اضطر في الكثير من الأحيان إلى مغادرة أمستردام خوفا من اضطهاد الطائفة اليهودية له، وكل هذا كان بسبب آرائه الراديكالية وأفكاره التنويرية المعارضة لسلطة رجال الدين، وكذلك موقفه النقدي العقلاني من التوراة، وذلك نتيجة إخضاع أسفاره للمنهج التحليلي النقدي معتمدا في ذلك على النقد الخارجي والنقد الداخلي، فركز في نقده الخارجي على الظروف الخاصة التي حفظت بها أسفار التوراة ورويت أي أن تركيزه كان منصبا على المعرفة التاريخية للأسفار، أما النقد الداخلي فقد كان قائما على تفسير التحليل النقدي الذي جاء به "ابن عزرا"، ثم عرض اسبينوزا بعد ذلك نقده التاريخي لنص التوراة.

وبعد فحصه النقدي للأسفار الخمسة، توصل إلى أنها تاريخ مؤلف، ألف بعد موسى بزمن طويل، وأن مؤرخا أو راويا واحدا قد جمع وكتب هذه الأسفار، إلا أنه لم تتوفر لديه المعرفة التاريخية عن الظروف التي جمع فيها هذا المؤلف أو الراوي هذه الأخبار التاريخية. وقد رجّح أن يكون هذا المؤلف هو ابن عزرا.

إذن نسبة الأسفار الخمسة إلى موسى عليه السلام هي في نظر اسبينوزا باطلة وذلك بناء على تحليله لتفسيرات ابن عزرا وتحليله النقدي لنص التوراة. وقد سبقهما إلى ذلك ابن حزم الأندلسي الذي يستحق لقب مؤسس علم نقد الكتاب المقدس، ولعل من أهم الأسباب التي دفعت ابن حزم إلى الاهتمام بدراسة التوراة ونقدها وتمحيصها موقف القرآن الكريم، إذ أخبرنا الله في آيات كثيرة عن تحريف اليهود للتوراة، ومن الآيات الصريحة على ذلك قوله تعالى في سورة النساء الآية 46

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ومنها قوله تعالى في سورة المائدة الآية 13 ﴿فَبِمَا نَقْضِهِ مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَال تَطَّلِعُ عَلَىَ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، وهذا معناه أن التوراة الموجودة بين أيدي اليهود محرّفة.

إذن كما أنه يجب أن نؤمن أن التوراة هي كتاب الله الذي أنزل على موسى عليه السلام تصديقا لقوله تعالى في سورة الأعراف الآية 143:﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَه دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقوله تعالى في سورة الأنبياء الآية 48 ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فإنه يجب أيضا أن نؤمن أن اليهود أضاعوا هذه التوراة وأقدموا على تحريفها وبالتالي فالتوراة الموجودة الآن بين أيدي اليهود محرّفة لا يجوز الإيمان بها.

4. المصادر والمراجع:

- **قائمة المصادر باللغة العربية:**

1- القرآن الكريم.

2- سبينوزا. (1971)، ***رسالة في اللاهوت والسياسة***، ترجمة وتقديم: د/ حسن حنفي، مراجعة: د/ فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، (ب ط)، مصر.

- **قائمة المصادر باللغة الأجنبية:**

1 - Spinoza, (1964), *« Court traité » In Œuvres de Spinoza*, tr: Charles Appuhn, Garnier Flammarion , Paris.

2- Spinoza, (1964), *Éthique démontrée suivant l'ordre géométrique et divisée en cinq parties*, traduction et notes par Charles Appuhn, Garnier Flammarion, Paris.

- **قائمة المراجع باللغة العربية:**

1 - ابن حزم. (ب. ت)، ***الفصل في الملل والأهواء والنحل وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني***، الجزء الأول، مكتبة الإسلام العالمية (ب. ط).

2- الشرقاوي، محمد عبد الله. (ب. ت)، ***منهج نقد النص بين ابن حزم الأندلسي واسبينوزا***، كلية العلوم (ب. ط)، القاهرة.

3- اوسينوبوس، لانجلو وآخرون. (1981)، ***النقد التاريخي***، تر: عبد الرحمن بدوي: وكالة المطبوعات،(ط. 4)، الكويت.

4- حلمي، مصطفى. (2004)، ***الإسلام والأديان***، دراسة مقارنة، دار الكتب العلمية،(ط. 1)، بيروت.

5- سعيد، جلال الدين. (2017)، ***سبينوزا والكتاب المقدس الدين والأخلاق والسياسة***، مؤمون: بلا حدود للنشر والتوزيع، (ط. 1)، الرباط.

6- شازار، زالمان. (2000)، ***تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث***، (ب. ط)، تر: أحمد محمود هويدي، تقديم ومراجعة: محمد خليفة حسن أحمد، المجلس الأعلى للثقافة.